المستشرقون الفرنسيون
وتعليم اللغة العربية للأوربيين في الجزائر

1914 - 1830

للدكتور أبو القاسم سعد الله

عندما يذكر الاستعمار الفرنسي للجزائر يتبادر إلى الأذهان موقفه من اللغة العربية والمشهور عنه أنه حارب هذه اللغة بمختلف الوسائل حتى عجم لسان أهل الجزائر أو كاد وفرض عليهم لغته الفرنسية . وبحثنا هذا ليس تأكيدا أو نفيا لهذا الموقف ، وإنما هو يتناول جانبا آخر ، وهو توظيف الفرنسيين للغة العربية لمصالحهم الاستعمارية في الجزائر ومدى نجاحهم أو فشلهم في ذلك ، والطرق التي استعملوها للوصول إلى ذلك الهدف ، والأشخاص الذين جندوهم لتحقيقه ، والمراحل التي مرت بها التجربة التي قد تكون فريدة من نوعها .

وهناك تطورات ارتبطت بهذه التجربة نذكرها اختصارا قبل الدخول في الموضوع وهي :

أولا : أن الحملة الفرنسية على الجزائر قد وقعت بعد ثلاثين سنة من الحملة الفرنسية على مصر ، وهي الحملة التي تركت بصماتها على الشرق وجعلت الاستشراق الفرنسي ينشط في تحقيق ماعجز عليه الجيش . وسنرى أن الفرنسيين استفادوا في الجزائر من تجربتهم في مصر من عدة نواح وخصوصا فيما يتعلق باللغة العربية .

ثانيا : أن بقايا المترجمين في حملة نابليون الفاشلة على مصر هم الذين تولوا الترجمة لجيش بورمون (1) في الجزائر . وكان من هؤلاء التراجمة رجال « مشارقة » من مصر وسورية (2) ، ورجال « أوربيون » من فرنسيين وغيرهم .

(*) أتى في الجلسة السابعة يوم الأحد ٢٧ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م .

(1) الكونت دي بورمون كان وزيرا للحربية في عهد شارل العاشر ، وتولى قيادة الحملة الفرنسية ، وقد عزل بعد أقل من شهر من احتلال مدينة الجزائر لأن انقلابا حدث في فرنسا أطاح بعرش شارل العاشر وجاء بالملك اويس فيليب يوليو 1830 .

(2) يقول شارل فيرو (مترجمو جيش أفريقية) ، الجزائر 1876 ، أن معظم المترجمين الأوائل في الجيش الفرنسي كانوا من مواليد بلدان عديدة : سورية ، مصر ، تونس ، الجزائر ، طنجة ، مالطة ، إلخ . انظر المقدمة .

ثالثا : إن نجاح الحملة الفرنسية وعمليات التوسع فى الاحتلال وما رافق ذلك من نشأة الإدارة الفرنسية ومن استيطان آلاف الأوروبيين فى الجزائر ، كل ذلك جعل معرفة الفرنسيين للغة العربية أمرا ضروريا لكى يسهل عليهم الاتصال بالجزائريين (أو الأهالى كما كانوا يسمونهم) . فواضح إذن أننا نتكلم هنا عن معرفة الفرنسيين وليس الجزائريين للغة العربية .

فكيف بدأت وتطورت هذه المعرفة الفرنسية للغة العربية فى الجزائر ؟

لقد بدأت بتجنيد فرقة من المترجمين لمرافقة الحملة ، أطلق عليها « فرقة المترجمين العسكريين » رغم أن منهم القسيس والمدرس والتاجر وهلم جرا ، وقد كان بعض هؤلاء من مواليد مصر وسورية وبعضهم من تلاميذ سليفستر دى ساسى (1) عميد مدرسة اللغات الشرقية بباريس حينئذ ، ومن المترجمين الشرقيين نذكر زكار الذى تعاون مع دى ساسى على ترجمة البيان الفرنسى للجزائريين قبل نزول الحملة ، وهو من مواليد دمشق(2) .وأثناء وجوده بالجزائر قام زكار بتدريس اللغة العربية للاوروبيين مدة ثلاث سنوات . ومنهم جورج غروى السورى الأصل أيضا والذى وزع البيان المذكور على الجزائريين ثم غامر بحياته وذهب إلى الداى (الباشا) طالبا منه التفاوض والخضوع لمطالب الفرنسيين فقتله ، ومنهم أيضا إبراهام دنينوس الذى كان من مواليد الجزائر (3) . وقد كتب عدة أعمال عن اللغة

---

(1) دى ساسى de Sacy (1758—1838)) لم يزر الجزائر ، ولكنه شجع على إنشاء كرسى العربية فيها وهو الكرسى الذى تولاه عدد من تلاميذه ،وعلى رأسهم برينييه Bosnier ويعتبرونه «منشىء علم الاستشراق بأوروبا » ومن مؤلفاته قاموس عربى — فرنسى انظر عنه (حوليات معهد الدراسات الشرقية) ،الجزائر م 3 1937 ،ص1—5وكذلك عبد الرحمن بدوى (موسوعة المستشرقين) ، بيروت ،1984 ،ص226—232 .

(2) جان شارل زكار ، ولد بدمشق سنة 1789 ثم أصبح قسيسا فى إحدى كنائس مرسيليا ، وعند الإعداد لحملة الجزائر سمى مترجما فيها مع بقائه على وظيفه الدينى حتى أنه هو الذى ألقى أول قداس فى مدينة الجزائر على أثر الإحتلال وبحضور زعماء الحملة ، ثم أصبح ملحقا بمكاتب الولاة للفرنسيين الذين تداولوا على الجزائر إلى عهد بوجو (1845) وفى هذه السنة وضع تحت تصرف أسقفية الجزائر الناشئة .

(3) دنينوسDaminosولد بالجزائر سنة1797 ، وقد تعلم العربية وأصبح مترجما بها فى إحدى المحاكم بفرنسا وعند توجه الحملة إلى الجزائر (1830) عين المترجم — الدليل لها انظر شارل فيرو (مترجمو جيش أفريقية) ، الجزائر1876 ، ص 19 انظر عنه أيضا هنرى ماسيه (الدراسات العربية فى الجزائر1830—1930) منشورات (المجلة الأفريقية) ، رقم356— 357 ,1933 ، ص 2 .

العربية منها معجم عربي فرنسي ، وزع على ضباط الحملة . إضافة إلى جوني فرعون الذي كان من مواليد القاهرة . والذي سيرد ذكره .

وبعد الحملة بدأت عمليات الاحتلال وإقامة المنشآت الإدارية والاستيطان ، واحتاج النظام الاستعماري إلى معرفة البلاد وأهلها ، وكانت اللغة العربية هي الوسيلة الضرورية لهذه المعرفة . وكانت العربية في الجزائر تعتمد ، مثلها في ذلك مثل العربية في مختلف أقطارها ، على الفصحى كلغة ثقافية مكتوبة ، وعلى العامية كأداة اتصال بين السكان متعلمين وأميين ، بل إن المدن الساحلية ، وخصوصا مدينة الجزائر ، كانت تتوفر على لهجة تكاد تكون دولية ، وتسمى باللغة الافرنجية (Langua Franca) وهي عبارة عن مفردات خليط يتداولها التجار والبحارة لقضاء مآربهم في موانىء البحر الأبيض . وتتألف من كلمات عربية وتركية وإيطالية وأسبانية وبروفانسالية الخ وليست هذه اللغة الخليط هي الوسيلة التي سيفهم بها الفرنسيون الجزائريين ولا هي اللغة الإدارية أو العلمية التي سيعتمدونها في مصالحهم ، فلابد إذن من البحث عن وسيلة أخرى .

يقول أحد المستشرقين الفرنسيين : لقد كان على « السادة الجدد » (يعني الفرنسيين) أن يستعملوا اللغة العربية في الإدارة وفهم السكان ولا يمكن مطالبة المنهزمين (يعني الجزائريين) تعلم لغة الغزاه فورا . بالإضافة إل أن نشر اللغة العربية بين الضباط والموظفين كان يعتبر وسيلة قوية للتقارب بين الاعراق (racas) التي يبعدها عن بعضها الأصل والدين والعادات . لقد كان كل واحد مقتنعا بذلك وكان الرأي العام كله مع هذه الفكرة (1) .

فاللغة العربية في الجزائر كانت لغة الحديث منذ قرون ، ودراستها بطريقة جادة يمكن أن تقدم للفرنسيين فوائد جمة ، وذلك باقامة علاقات عديدة مع الأهالي والتعرف أكثر على الشعب « الذي دعينا ليس فقط لحكمه ولكن لإدخاله بالتدرج إلى عالم أفكارنا وحضارتنا » وبذلك يتعرف الفرنسيون على حاجة الجزائريين ورغباتهم وآلامهم لكي « نجعلهم يتذوقون تحسيناتنا ويتعودون على اعتبارنا كحماة لمصالحهم وممدنين لبلادهم وليس كغزاة تساندهم الأسلحة » ويضيف هذا المستشرق الخبير في شؤون الاستعمار : أن دراسة أدب الجزائريين سيؤدي إلى معرفة

---

(1) نقل ذلك كور A. ccur (ملاحظات على كراسي اللغة العربية في الجزائر) ، في المجلة الأفريقية ، رقم 318 ، 1924 ص20 ، نقلا عن فورميستسو Fourmcstsaux في كتابه (التعليم العمومي في الجزائر من 1830—1880) ، باريس ، 1880 .

عبقريتهم وأصالة فكرهم وشعرهم المؤثر ، ومعرفة كتبهم فى العلوم والتاريخ والفقه والدين ، ومن ثمة معرفة أصول أفكارهم وأحكامهم وتقاليدهم » (1) وقد عبر أكثر من واحد على حاجة الفرنسيين إلى تعلم العربية للأغراض المذكورة (2) . ولكن ذلك لم يكن محل اتفاق مطلق ، كما ادعى البعض بل إن هناك من الفرنسيين من ذهب إلى أن على الأهالى أن يدرسوا اللغة الفرنسية بصفتهم مغلوبين ، وليس على الفرنسيين أن يدرسوا اللغة العربية لأنهم هم الغالبون (3) .

وأول من عهد إليه الفرنسيون بتدريس اللغة العربية للأوربيين فى الجزائر هو جوئى فرعون الذى كان من مواليد القاهرة (4) ، وكان أول أستاذ للغة العربية فى الجزائر فى العهد الفرنسى وقد ألف عدة كتب لتلاميذه وكون منهم معربين بارزين فى صف الجيش

---

(1) كور ، ص 31—32 .

(2) انظر مثلا فيرو ، ص 19 .

(3) كتب ذلك ماشويل L. Machuel ، أستاذ اللغة العربية فى ليسية الجزائر ، سنة 1875 انظر كتابه (طريقة لدراسة العربية العامية Méthode pour l'Etude de l'Arabe Parlé) ، مقدمة ط . 2 وقد أعيد طبع الكتاب عدة مرات .

(4) ولد جوئى فرعون فى القاهرة سنة 1803 وأبوه هو الياس فرعون السورى الأصل ، وقد عمل الياس مترجما فى الجيش الفرنسى أثناء الحملة على مصر . وبعد خروج الحملة من مصر رافق جوئى والده إلى فرنسا ، والتحق بمدرسة اللغات الشرقية بباريس وأصبح سنة 1821 أستاذ اللاتينية فى كوليج سان بار ثم فى سنة 1825 أستاذا للفرنسية فى الكوليج المصرى بباريس ، ثم بعد سنتين أصبح مشرفا على التلاميذ المصريين الضباط بمدينة طولون . وعند انطلاق الحملة على الجزائر من طولون انضم جوئى إليها . وفى سنة 1831 أصبح مترجما وكاتبا خاصا فى الإدارة الفرنسية الجديدة بالجزائر وفى سنة 1833 عمل كاتبا (سكرتيرا) ومترجما للجنة الأفريقية التى أرسلتها حكومة باريس إلى الجزائر لتحقق فى الأوضاع وتوصى إما بالاحتفاظ بالجزائر وإما بالجلاء عنها . ولازم جوئى اللجنة ثلاثة أشهر مما جعله يتوقف عن دروسه . ويقول عنه فيرو أنه قد أدى خدمات عديدة ومتنوعة لفرنسا وقد ظل يؤدى هذه الخدمات إلى وفاته بفرنسا (saumur) سنة 1846 انظر عنه فيرو ، ص 229—232 ، وكور ، ص 21 ، وماسيه ، ص 3—4 .

الفرنسي مثل لاموريسيير (1) ، وبيليسيي دى رينو (2) ، ودوماس(3) ، الخ .

أما قصة اسناد دروس اللغة العربية إلى جونى فرعون فنسوقها باختصار . فقد جاء إلى الجزائر متصرف مدنى ، اسمه جنتى دى بوسى de Bussy كان يحمل أفكارا حضارية يريد غرسها فى الجزائر تتلاءم مع سياسة سيده الدوق دو رفيقو (قائد جيش الاحتلال) التى قال عنها « إن الجزائر لن تكون فرنسية فعلا إلا إذا أصبحت فيها لغتنا (الفرنسية) هى السيدة وانتشرت فيها الفنون والعلوم التى شرفت بلادنا » وبناء على هذه التوصية قام دى بوسى بإنشاء مكتبة عامة جعل نواتها من المخطوطات العربية التى جمعت من المساجد وغيرها ، ومطبعة عربية — فرنسية لطبع المنشورات الرسمية ، وجريدة باسم Le Monit eur Algérien بالفرنسية لنشر أخبار الحكومة ، ومن ذلك انشاؤه لدروس فرنسية موجهة لحضر الجزائر ويهودها ، ودروس بالعربية للأوروبيين .

والملاحظ هو أن دى بوسى جعل دروس الحضر واليهود إبتدائية ولم يولها الاهتمام الذى أولاه لدروس العربية الموجهة إلى الأوروبين فلم يشترط هناك فى الاستاذ ولا فى المستوى ما اشترطه هنا ، ولكنه جعل كل الدروس عامة ومجانية . واشترط فى أستاذ العربية مؤهلات عالية . فأرسلت إليه الوزارة من باريس أنها وضعت تحت تصرفه أستاذ اللغة العربية فى كوليج لويس لوقران Louis le Grand واسمه أعقوب (يعقوب) المصرى ولكن هذا توفى قبل التحاقه (4) . عندئذ أسند دى بوسى تلك الوظيفة إلى جونى فرعون ووضع تحت تصرفه بناية تابعة للإدارة ، وهكذا أخذ جونى يعطى دروسا مجانية

---

(1) لامور سيير ، كان من أتباع حركة سن سيمون ، وتزوج من جزائرية ، وتولى الشئون العربية فترة فى الإدارة الاستعمارية ، وإليه سلم الأمير عبد القادر سيفه وجواده عند هزيمته سنة 1847 وقد ترقى فى الجيش حتى وصل إلى رتبة جنرال .

(2) اشتهر بكتابه (الحوليات الجزائرية) فى جزئين وبعد أن تولى عدة وظائف فى الجزائر . عين قنصلا لبلاده ، فى طرابلس وفى هايتى وغيرهما توفى سنة 1853 أنظر عنه المجلة الأفريقية رقم 11 (1858) ، ص 419—421 .

(3) يوجين دوماس ، تولى قنصلية فرنسا فى معسكر ، عاصمة الأمير عبد القادر ، 1837—1839 كتب عدة كتب عن (المرأة العربية) و (الخيول العربية) ، والكتاب الأخير مترجم إلى الإنكليزية وترقى إلى رتبة جنرال .

(4) كذا مكتوبا فى المصادر الفرنسية (Agcub) ، وكان يعقوب فى خدمة الحملة الفرنسية على مصر ، ثم خرج معها إلى فرنسا حيث بقى مترجما ومدرسا للغة العربية إلى أن وقع تعيينه فى الجزائر الذى لم ينفذ إذ توفى قبل التحاقه وكان يعقوب من أقباط مصر ، وقد ألف مجموعة من القصص الخيالية العربية باللهجة العامية تحت عنوان (المزهر Lyre) انظر كور ، ص 24 .

ورسمية للأوروبيين أيام الثلاثاء والخميس والسبت من الثالثة إلى الرابعة ، ابتداء من 6 / 12 / 1832

وتذكر المصادر الفرنسية أن دروس جوني فرعون العربية كانت ناجحة للغاية ، فكان جمهورها الأوربي قد ضاقت به البناية مما اضطر جوني إلى تبديل المكان عدة مرات لضيقه . وفي هذه السنة أيضا أصدر جوني فرعون أول كتاب في النحو العربي ، وهو كتاب مدرسي موجه لتلاميذه (1) . وخلال السنة الموالية أصبح لجوني فرعون درسان في العربية — وكلاهما بالعامية — درس عام يبدأ من منتصف أكتوبر على الساعة الحادية عشر والنصف ، ودرس خاص بالأشخاص الذين لا يستطيعون حضور الأول ، ولم تكن الدروس مجانية بل أنه جعل رسما بـ 45 فرنكا على الدرس الخاص للفرد ، ومدته ثلاثة أشهر ، ثلاث مرات أسبوعيا بمعدل ساعة لكل مرة . وبالإضافة إلى تدريس العربية (العامية) للأوربيين ، وتأليف الكتب المدرسية لتلاميذه ، كلفته الحكومة الفرنسية بوضع تقرير عن المصطلحات العربية في القضاء الاسلامي وفي التوثيق بالمحاكم ، كما أنه ساهم في انشاء فرقة خاصة بالمترجمين المحلفين القضائيين (سنة1835)) ، إلى جانب فرقة المترجمين العسكريين (2) .

ورغم الدور الذي لعبه جوني فرعون في تدريس العربية للأوربيين ونجاحه المنوه به في المجالات الأخرى ، فإنه كان ينظر إليه على أنه ليس من أصل فرنسي ، وأنه لم يكن مستشرقا بالمعنى الدقيق للكلمة وعندما ، استحدث الفرنسيون كرسي اللغة العربية Chaire de langue arabe في الجزائر سنة 1832 ، استشاروا عميد المستشرقين في باريس في الشخص الذي يقترحه له ، فأشار عليهم بتلميذه لويس برينييه (3) Breasnier ، ومنذ ذلك الحين

---

(1) يذكر كور ، ص24 ، أنه أول كتاب صدر عن المطبعة الحكومية بالجزائر وهو في اللهجة العامية التي لا ندري من أين تعلمها جوني فرعون ، ويذكر ماسيه أن عنوان الكتاب هو (النحو الإبتدائي للعربية الدارجة أو الجزائرية لاستعمال الفرنسيين) وأنه صدر سنة1832 كما يذكر نفس المصدر أن جوني فرعون قد حاول تبسيط الكتاب باصداره في السنة الموالية بعنوان (موجز النحو العربي المبسط والمنقح) انظر أيضا ماسيه ، ص 4 .

(2) كان المترجمون العسكريون هم صلة الوصل بين الجزائريين وسلطات الإحتلال ويذكر شارل فيرو ، ص86 ، أن سمعة هؤلاء المترجمين كانت سيئة وغير مشرفة إلا ما ندر فقد كانوا خليطا من مختلف الأجناس ، وأضيف إليهم بعض الأهالي الذين يعرفون شيئا من الفرنسية ، كما انضم إليهم عدد من اليهود الجزائريين لأنهم كانوا أكثر صلة بأوربا من المسلمين بحكم المعاملات التجارية مع أهلها .

(3) انظر ماسيه ، 5—9 وقد خصص له عبد الرحمن بدوي في (موسوعة المستشرقين) بضعة أسطر فقط ، ص56—57 ، ولم يذكر أن العربية التي كان يعلمها برينيية إنما هي العامية ، كما أنه لم يذكر أهداف التعليم الذي كان يقدمه ، وقد اعتمد بدوي في ذلك على مرجعين . انظر عنه كور ، ص27—39 وما بعدها .

تحول درس Cours العربية إلى كرسى Chaire العربية وتولى برينييه مكان فرعون .

وتذكر المصادر الفرنسية أن برينييه خير مؤهل لهذه المهمة. فهو مستشرق بالاختصاص وفرنسى بالأصالة، ومن تلاميذ مدرسة اللغات الشرقية وعلى رأسها دى ساسى ، ومن شيوخه أقطاب الاستشراق الفرنسى عندئذ : كاترمير ، وجوبير ، وغارسان دى طاسى ودى بيرسوفال ، وجان مارسيل . وكان برينييه من مواليد مونتقرى Montegris سنة 1814 ، اشتغل فى الطباعة أول الأمر ثم شغف باللغات الشرقية وجاء إلى باريس لدراستها على أهل الاختصاص فى مدرسة اللغات الشرقية . وقد استمر برينييه فى تولى كرسى العربية فى مدينة الجزائر من 1836 ، إلى وفاته سنة 1869 .

وأثناء ذلك ألف عدة كتب لتلاميذه سنذكر بعضها وشارك فى عدة مشاريع علمية مثل مشروع (اكتشاف الجزائر العلمى) الذى أشرفت عليه الحكومة الفرنسية (1849) ، وتأسيس الجمعية التاريخية الجزائرية (1856) والمجلة الأفريقية المجسدة لنشاط هذه الجمعية . كما أنه أخرج أفواجا من المترجمين (العسكريين والقضائيين) والمدرسين للغة العربية فى الجزائر.

افتتح برينييه أول درس له فى العربية العامية خلال يناير 1837 . وتنويها بالدرس وصاحبه نشرته الجريدة الرسمية عندئذ (لومونيتور) بحذافيره . وجاء فيه أن الهدف من هذا الدرس العام هو تعريف الأوربيين بمبادىء اللهجة العامية فى « ممتلكاتنا الأفريقية » (الجزائر) وبمبادىء اللغة المكتوبة . وأشار إلى أن معرفة العربية قد أحس بها جميع الفرنسيين فى الجزائر فهى التى يتكلم بها الأهالى وهى المستعملة فى جميع العلاقات العائلية والتجارية وقال إن كل فرد من الفرنسيين يشعر بضرورة توصيل حاجته إلى الأهالى دون واسطة . ونوه كذلك باللغة العربية فقال إنها غنية جدا فى تعابيرها ، وغنية جدا فى أشكالها ، ورشيقة جدا فى أساليبها ، والفرق بين المكتوبة والمنطوقة يشكل ما سماه الآخرون قبله : العربية الأدبية والعربية الدارجة . وعدد برينييه الفروق بين الفصحى والعامية قائلا إن أصفى اللهجات هى لهجة اليمن حيث تأصلت العربية وحيث ولد (كذا) محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) الذى يعتبر كتابه نموذجا رائعا إذا لم يكن فى وضوح الأفكار فعلى الأقل فى رشاقة الأسلوب واعتبر برينييه أن اللهجات العربية أخذت تفترق عن بعضها وتبتعد عن الأصل ، وادعى بأن لهجات شمال أفريقية أكثرها ابتعادا (1) .

---

(1) الدرس (أو المحاضرة) منشور فى (المونيتور)، يناير 1837، وأورد خلاصته هنرى ماسيه ، ص 5 وكانت عبارة (ممتلكاتنا) هى التى يطلقها الفرنسيون على الجزائر عندئذ، كما أن تعبير أفريقيا، والأفريقية كان يطلق على الجزائر وما يتصل بها فى بادىء الاحتلال .

وقال برينييه عن طريقته فى التدريس إنه سيجعل دروسه على قسمين : الأول خاص باللهجة الجزائرية وذلك بتوضيح تعابيرها الشائعة واستعمالاتها وتدريب السامعين عليها . واشترط ضرورة تعلم الحروف العربية سواء تلك التى قال عنها لأنها معروفة فى الشرق أو الخاصة بالمغرب العربى والتى قال لأنها تختلف فى الخط الكوفى أو العربية القديمة . ولاحظ أن الكتب التى تعين على هذا المستوى من الدرس غير متوفرة فى وقته إلا قليلا وغير مختصة . أما القسم الثانى من دروسه فقد وجهه إلى الأشخاص الذين لهم معرفة بالعربية والراغبين فى معرفة الكتابة ، ولهؤلاء قدم برينييه النظرية النحوية وتطبيقاتها على ترجمة النصوص المختلفة . وقد اختار لهم من هذه النصوص مجموعة من ألف ليلة وليلة لأنها فى نظره تعطى لتلاميذه نموذجا بسيطا وسهلا وتعابير سعيدة ومتنوعة . كما عين لهم كتاب النحو للمستشرق دى ساسى وكتاب نحو العربية العامية لبير سوفال . وبعد سنة من تجربته فى التدريس بالجزائر كتب برينييه مقالة فى (المجلة الآسيوية) أوضح فيها أفضل الطرق لتدريسها . وقدر أى ضرورة أن يقضى الدارس سنة كاملة فى تعلم العربية المكتوبة (الفصحى ؟) قبل دراسة العامية .

وكانت حصصه الأسبوعية مقسمة كالتالى: ثلاث حصص للتدريب على العربية الدارجة ، وحصة للنحو والاملاء والأسلوب ، وحصة لشرح نصوص عربية أدبية وعلمية ، وحصة لترجمة الرسائل والنصوص الرسمية ، والكتابات المتداولة . وكان برينييه يلح على أن يخدم تعليم اللغة البحث اللغوى والمواد التاريخية والأدبية ، وتوفير الوسائل للفهم والاتصال التلقائى عن طريق التعبير الشفوى الكتابى . كما كان يلح على ضرورة الجمع بين المعرفة النظرية والعملية لكى يخدم أحدهما الآخر . وفى هذا النطاق ألف برينييه مجموعة من الكتب معظمها موجه لطلابه ، ولكن بعضها بقى مرجعا لمدرسى العربية من المستشرقين حتى بعد وفاته (1) .

---

(1) من مؤلفاته :

1— ترجمة الأجرومية للصنهاجى والتعليق عليها .

2— المجموعة العربية الإبتدائية المختارة (Anthologie) .

3— مختارات عربية Christomathie وهى التى ضمت عددا كبيرا من الرسائل والنصوص الرسمية وغيرها من الوثائق المعاصرة .

4— الدروس العملية والنظرية فى اللغة العربية الذى طبع عدة طبعات .

5— عناصر الخط العربى ، سنة1855.

6— مبادىء اللغة العربية ، سنة1867 وكان برينييه يحسن التركية (العثمانية) والفارسية أيضا ومما يذكر أنه قبل تأليفه للكتب لتلاميذه ، وزع عليهم (1837) معجم المستشرق جان جوزيف مارسيل فى اللهجات العامية فى الجزائر وتونس ومصر وهو معجم (Vocabulaire) فرنسى — عربى مطبوع فى باريس .

وفى مؤلفاته أعطى برينيه لطلابه نماذج من روح الشرق فى العناوين التى اختارها بالعربية وفى الألوان والتزاويق للغلاف .مثلا فى كتابه (المختارات) المطبوع سنة 1845 زخرفت صفحة الغلاف الداخلى بزخارف عربية — اسلامية ولونت بألوان متناسقة ، وفى وسطها عنوان الكتاب بالعربية هكذا (جامع المكاتيب فى العربية والمعانى الغرايب للشيخ النحوى المدرس أبرينى ، لطفه الله به)(1) كما أن كتابه (الدروس العملية والنظرية للغة العربية) قد وضعت له لوحة فنية أمامية ملونة على الطراز العربى — الإسلامى وكتب فيها العنوان بالعربية هكذا (مفتاح كنوز النحو والأدب لفتح علوم العرب) (2) .

وقبل أن نطوى صفحة الحديث عن برنييه نذكر ملاحظتين قالهما عن اللغة العربية بعد تجربته معها . الملاحظة الأولى ما جاء فى مقدمة كتابه (المجموعة العربية) من أن العربية غنيه فقط بأشكال الكلمات وتنوعها والمترادفات ، وأنها بعيدة عن أن تقدم ، فى حالتها الحاضرة وربما فى المستقبل ، الطاقات والسهولة التى تقدمها اللغات الأوربية الرئيسية ولا سيما الفرنسية(3) . وفى نفس الكتاب انتقد برينييه طريقة الكتابة العربية فى الجزائر قائلا إنها غير فنية وغير متناسبة الأجزاء بخلاف الشرق حيث الخط وفن الكتابة يمتازان بالذوق والتناسب . ولكنه لاحظ أن فى فن الكتابة الجزائرية خصائص أساسية لا يدركها المرء إلا بعد الممارسة .

أما الملاحظة الثانيـــة فهى حثه الفرنسيين على تعلم اللغة العربية لكى تكون وسيلتهم إلى معرفة الشعوب الأخرى . فقد قال فى مقدمة كتابه (الدروس العملية) إن اللغة العربية ليست وسيلة فرنسا للاتصال بعالم الأهالى (الجزائريين) فقط بل بالعالم العربى الإسلامى أجمع . وقال إن معرفة اللغة العربية ستجعل العالم الأوروبى يربط علاقات بالشعوب الإسلامية وهى علاقات لا تكفى فيها الكتب بل لا بد فيها من التعبير الشفوى أيضا(4).

إن دور برينييه فى ترويج العربية بين الأوروبيين لم يختره لنفسه فقط بل اختير إليه . وكان عليه هو أن ينفذه بدقة ونشاط

---

(1) اطلعنا على ط. 2 من الكتاب ، باريس — الجزائر 1857 .

(2) طبع عدة طبعات ، 1846 ، 1855 , 1915 .

(3) المقدمة ، ص 5 ، ط . باريس 1852 .

(4) مقدمة ط . 3 ، 1915 .

لأنه بذلك يحقق أهداف الإدارة الاستعمارية . وهذه رسالة المتصرف المدنى بريسون Bresson تشهد بذلك . وكان بريسون قد خلف جنتى دى بوسى فى الإدارة المدنية بالجزائر، 1836 وقد سارع بكتابة رسالة إلى المفتش العام للتعليم جاء فيها أن مهمة فرنسا فى الجزائر تتوقف على دراسة العربية والتوسع فيها ، وذلك لمعرفة الأهالى والاتصال بهم ، وأنه لا يكفى فى ذلك الاعتماد على بعض المترجمين وقال أن إنجاز الاستعمار Colonisation يتوقف على نجاح بريتيبه فى مهمته ، وأن الحكومة لم تختره لذلك إلا لثقتها فيه وتقديرها له . وعليه أن يثبت ذلك ، كما عليه أن لا ينسى أن الدرس الذى يلقيه فى اللغة العربية ليس درسا عاديا ، لأنه درس جاء بعد احتلال الجزائر فاكتسب بذلك أهمية سياسية ومنفعة عظيمة . وعلى بريتيبه أيضا أن يعمل على توسيع المعرفة فى العربية الدارجة ، وأن لا يقتصر فى ذلك على لهجة مدينة الجزائر بل عليه أن يفعل نفس الشىء مع لهجات التل وقبائل زواوة وقبائل السهول والجبال عندما تستطيع فرنسا الوصول إلى هذه المناطق(1) .

وكان لبريسون مخطط آخر أيضا كشف عنه فى هذه الرسالة التى تعكس اهتمام الفرنسيين المبكر بدراسة العربية كوسيلة للاحتلال والتوسع : فقد جاء فى نفس الرسالة أنه (بريسون) يتطلع بكل رضى ممزوج بالأمل أن يرى الشباب الأروبى فى الجزائر ، وقد درس العربية واستفاد منها فى الفلاحة والتجارة وفى الوظائف العمومية لأن الإدارة ، كما قال ، تخطط أن لا تقبل فى المستقبل فى هذه الوظائف إلا الأروبيين الذين يعرفون العربية والفرنسية معا ، بل أن المترجمين أنفسهم سيقع تفضيل الذين درسوا منهم فى الجزائر على الذين درسوا خارجها . ومن أجل ذلك طلب بريسون من مفتش التعليم أن يكشف للآباء عن هذه النية ، وأن يطبع الكتب الابتدائية ، وأن يشترى الكتب الضرورية ، وأن يفتح أقساما جديدة للعربية فى المدارس الفرنسية ، وأن يحدث مسابقات وجوائز لهذا الغرض(2) .

---

(1) كان الإحتلال الفرنسى عندئذ (1837) ما يزال مقصورا على بعض المدن الساحلية .

(2) رسالة بريسون إلى المفتش العام للتعليم نشرتها (لومونيتور) فى 10 فبراير 1837 انظر كور ، ص33—35 .

والغريب أنه فى الوقت الذى يعلن فيه بريسون عن مخططاته لنشر العربية بين الأوربيين فى الجزائر كان يحرم الجزائريين من تعلم لغتهم وقد استولى الفرنسيون على المؤسسات الدينية والتعليمية ، وحولوا أعدادا منها إلى كنائس وملاجىء ومخازن ودكاكين كما استولوا على الأوقاف الإسلامية التى كانت تغذى التعليم ورجال الدين والعلم وترعى المكتبات .

ولكن تطلعات بريسون لم تتحق كلها وبسهولة ، بل أن الطريق كان مليئا بالعثرات والنتائج المخيبة ، كما سنرى . فلم تحن عشرية الأربعين حتى كان نظام معرفة العربية للأوربيين فى حاجة إلى اصلاح ومراجعة. وقد بدىء فى إصـلاح فرقة المترجمين العسكريين سنة1842 . وذلك باجراء امتحان لم يتسابقون فيه على تصنيفات ورتب محددة وكان مقرر اللجنة هو برينييه نفسه . وقد ترشح للامتحان عدد من تلاميذه وتقدم خريجو كرسى (حلقة) العربية فى الجزائر على من عداهم من المترجمين . وأصبح المترجمون العسكريون هم اليد اليمنى للإدارة الاستعمارية فى الجزائر إذ كانت البلاد كلها محكومة بنظام عسكرى دقيق (تابع لوزارة الحربية) ، وكانت « المكاتب العربية » التى تتولى شئون الجزائريين منتشرة عبر الأجزاء المحتلة من الجزائر وكان على رأس كل مكتب عربى (1) ضابط فرنسى يعرف العربية بالطريقة التى كان يعلم بها برينييه . وبذلك النوع من الامتحان أخرج من المترجمين العسكريين من لا هدف له إلا المصلحة الشخصية ، أو المرتزق . ويستعمل فيرو كلمة « التطهير » فى هذا المجال .

وأمام حاجة الإدارة الاستعمارية إلى موظفين يعرفون العربية وأمام انخفاض عدد الحضور (2) لدروس برينييه ، فإن الحاكم العام المارشال بوجو ، استصدر مرسوما ملكيا سنة 1845 ينص على أنه ابتداء من 1847 سيكون من المحتم على كل طالب وظيفة من المدنيين أن يكون عارفا بالعربية ولكن هـذا المشروع الطموح لم ينفذ فى النهاية ، لأن بوجو صاحب الفكرة غادر الجزائر فى منتصف 1847 ، ولكن ثورة 1848 بفرنسا قد غيرت نظام الحكم بها كما غيرت من سياسة فرنسا نحو التعليم فى الجزائر على العموم(3) .

---

(1) « المكتب العربى » مصطلح يعنى مركز السلطة الفرنسية لإدارة شئون الأهالى فى الأمن والقضاء ونحو ذلك ، وقد بقى إلى سنة1870 ، ثم انحصر فى المناطق الجنوبية فقط .

(2) يذكر كور ، ص39 ، أن عدد الحضور لدروس العربية قد انخفض تدريجيا حتى وصل إلى12 شخصا فقط فى درس العربية العامية وعشرة فقط فى العربية الفصحى . ويعلل كور لذلك بقوله إن هجرة الأوربيين إلى الجزائر كانت إلى ذلك الحين (1844) محصورة فى المدنيين الأميين بصفة عامة ، وابتداء من 1845 حل بالجزائر شباب متعلم للاستيطان والعيش فيها ، حاملا بمستقبل ملىء بالوعود .

(3) من ذلك أن قرار16 أوت1848نص على الحاق المدارس الفرنسية والإسرائيلية فى الجزائر بوزارة التعليم مباشرة أما المدارس الإسلامية فقد تركت تحت وزارة الحربية والغريب فى الأمر أن مسئول مصلحة التعليم فى الجزائر كان يتراسل بطريقتين مختلفتين : فهو يتراسل مباشرة مع الوزير فى باريس بالنسبة =

ولكن سنة1846 شهدت عمليتين تتعلقان باللغة العربية . الأولى احداث كرسى جديد (أو حلقه) للغة العامية فى كوليج الجزائر . ولملء هذا الكرسى أجريت مسابقة فاز فيها المستشرق قرقوس Gorguos ومن الطريف أن نعرف أن مواد المسابقة التى جرت تحت اشراف برينييه كانت تتألف من :

1ـ معرفة نحو العربية العامية .
2ـ عناصر العربية الأدبية (الفصحى) .
3ـ انشاء بالعربية العامية حول موضوع معين .
4ـ قراءة وترجمة نص من كتاب مفتوح من مخطوط سهل .
5ـ درس حول نقطة فى النحو العربى تتعلق بمسألة فى كتاب عربى .

أما العملية الثانية فهى احداث كرسيين للعربية الدارجة فى كل من وهران وقسنطينة وقد جرت مسابقة أيضا على نفس النسق لاختيار من يقوم بالوظيفتين . وكانت النتيجة فوز فينيار Vignard الذى تعين لقسنطينة أما كرسى وهران فقد كان من نصيب هادمار Hadamard ، المترجم السابق فى مصلحة أملاك الدولة . ومن جهة أخرى لم يطل أمد فينيار فى قسنطينة إلا بضعة أشهر ثم حل محله المستشرق شيربونو خريج مدرسة اللغات الشرقية بباريس(1) . وتجدر الملاحظة أن كلا من أستاذ كرسى العربية فى وهران

للمدارس الأولى ، أما بشأن مدارس المسلمين فعليه أن يتراسل فقط مع الوالى العام بالجزائر ومن التغيرات أيضا إنشاء أكاديمية التعليم بالجزائر ، سبتمبر1848، وتعيين ديلاكروا على رأسها وتسميته عضوا فى مجلس الوالى العام ومن الملفت للنظر أيضا أن للقرار المذكور لم يشر إلى كراسى العربية الأربعة . وقد يفهم من ذلك أنها تابعة للتعليم الإسلامى ، ولكنها من الناحية المالية كانت تابعة للتعليم العالى بفرنسا نفسها انظر كور ، ص 41—42 .

(1) جاك شيربونو Cherbonneau ولد سنة1813وتابع دراسته فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، وقد نشر عدة مقالات فى المجلة الآسيويه ، وكانت تسميته لكرسى العربية فى قسنطينة قد جعلته يكرس جهده لحياة الجزائر العربية وفى سنة1861 أصبح مدرسا فى المدرسة العربية الفرنسية بنفس المدينة ، وبعد سنتين أصبح مديرا للكوليج العربى للفرنسى فى الجزائر ، وفى سنة 1871 أصبح مديرا لجريدة (المبشر) وهى جريدة رسمية كانت تصدرها إدارة الجزائر باللغتين العربية والفرنسية. ومن وظائفه فى الجزائر أنه أصبح مفتش المدارس العربية ـ الفرنسية الثلاث وبعد أن فرغ كرسى العربية المغربية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس بوفاة البارون دى سلان ، رجع شيربونو إلى هذه المدرسة كأستاذ للعربية المغربية (العامية) وقد نشر عدة أعمال تدخل فى مهنته مثل الكتب المدرسية ومعجم عربى ـ فرنسى ، وتصريف الأفعال فى العامية وغيرها مما يدخل فى دراسة اللهجات ، كما نشر بعض الأعمال التاريخية مثل وثائق حول عبيد الله المهدى ، وتحقيق تاريخى حول الدولة الأغلبية ، وآخر حول عائلة بنى جلاب ، ومقالة عن الأدب العربى بالسودان وقد علق أحدهم على دور شيربونو فقال إنه كرس جهده فى الجزائر لصهر العنصر الفرنسى والعنصر العربى عن طريق التعليم انظر ماسيه ، ص11—13 ولا نجد لشيربونو ذكرا فى (موسوعة المستشرقين) لعبد الرحمن بدوى .

وقسنطينة كان يلقى ثلاثة دروس فى الأسبوع بمعدل ساعة للدرس . وقد أعطيت الحرية لكل منهما فى التصرف بما يراه مناسبا بعين المكان.

ورغم هذا التوزيع الجغرافى لحلقات تدريس العربية للأوربيين وإجراء المسابقات لاختيار أحسن الأساتذة ، فإن النتائج لم تكن فى مستوى الاهتمام . وقد انتقد بيليسيه دى رينو حالة التعليم فى الكراسى الثلاثة فقال عن الحضور إنهم لا يتجاوزون الستين شخصا وأن حالة الاقبال لا تختلف عن حالة الاقبال على دروس الكوليج دى فرانس . ولاحظ تقرير فى نفس الفترة (1848) أنه رغم حماس الأساتذة فإن نتائج الدروس كانت مخيبة للآمال . وقال إن عـــدد الحاضرين لحلقة وهران كان قليلا . وعلل ذلك بصعوبة العربية فى بدايتها ، وقيل إن الحاضرين يكثرون فى أول السنة ثم يتناقص عددهم بعد برودة الحماس الأول ولا يبقى منهم إلا عدد ضئيل (1) .

ولم يسع وزارة التعليم إلا تكوين لجنة سنة 1849 مهمتهـــا اقتراح الـــوسائل لنشر العربية بين الأوربيين والفرنسية بين المسلمين فى الجزائر فورا . والواقع أنه لا معنى لكلمة « فورا » هنا لأن توصيات اللجنة لم يؤخذ بها فى حينها ، كما سنرى . وكانت اللجنة برئاسة الجنرال بيدو الذى طالما قاد المعارك ضد الأمير عبد القادر ، وعضوية المستشرق الشهير بيرسوفال من الكوليج دوفرانس ، والدكتور بيرون Perron مدير مدرسة الطب بالقاهرة ، وفرديناند بارو Barrot مقرر اللجنة . وفى تقريرها لاحظت اللجنة أن نشر الفرنسية بين الجزائريين سيسهل مهمة الاستعمار ، وأما الوسائل لذلك فهى تهدئة الأوضاع (أى القضاء على المقاومة) والاندماج .

وأكدت اللجنة اضطراب عدد الحضور فى دورس العربية التى يتولاها المستشرقون الأربعة ، إذ يبلغ عدد المسجلين فى بداية السنة حوالى مائة ثم ينخفضون إلى حوالى 15 فى نهاية الفصل ، وأن هذا الحضور يختلف من مدينة إلى أخرى فعدد تلاميذ شيربونو بلغ 15 بينما بلغ تلاميذ هادمار بوهران ستة فقط ، منهم بعض الموظفين الجزائريين وكانت اللجنة على العموم راضية بدروس برينييه ، وقالت إن دروسه مقسمة على النحو التالى :

1—ثلاث حصص أسبوعيا للتدريب الشفوى وتعلم طريقة النطق والقراءة .

---

(1) كور ، ص 42 .

2ـــ حصـــة لقواعد النحو والإملاء والأسلوب .

3ـــ حصـــة للأدب مع شرح قطع من المؤلفات الأدبية أو العلمية .

4ـــ حصـــة لترجمة الرسائل والعقود والكتابات العادية .

وحكمت اللجنة أن نتيجة الدروس العربية تكاد تكون صفرا رغم حماس الأساتذة وأهليتهم ، وقد طالبت بضرورة منح تشجيعات للأساتذة وفتح المجال أمام التلاميذ الدارسين كجعل الوظائف المدنية مشروطة بإتقان اللغة العربية .

ولاحظت أن المعلمين الفرنسيين فى المدارس الابتدائية لا يعرفون العربية .

وتساءلت ما إذا كان من الحكمة الاستعانة بالمتعلمين الجزائريين الذين يعرفون شيئا من الفرنسية فى تعليم العربية لأبناء الفرنسيين ورأت أنه من الخطأ ترك المتعلمين الجزائريين غير موظفين لأن الفراغ يجعلهم يفكرون فى العمل ضد النفوذ الفرنسى . بالنسبة للتعليم الثانوى لاحظت اللجنة أن تعليم العربية فى الليسيه الوحيد عندئذ هو ساعتان فى الأسبوع فقط ، وأوصت أن تدرس العربية يوميا فى الليسيه ، وتقسيم دروسها على مدار السنة ، وشمول دراستها النحو وترجمة كتابات عربية إلى الفرنسية ، وكتابات فرنسية إلى العربية : اما بالنسبة للتعليم العالى (أى مستوى التعليم فى كراسى اللغة العربية) فقد رأت اللجنة أنه يحتاج فقط إلى التنظيم والتوسيع والتدعيم لما هو موجود : وأوصت بأن تفتتح حلقات أخرى للعربية فى عدة مدن أخرى بالجزائر (1) .

ولكن تقرير اللجنة المذكورة لم تكن له نتيجة عاجلة : فقد بقيت كراسى اللغة العربية على ما هى عليه : غير أن خطوات ثلاث تحققت وهى تهدف كلها إلى تشجيع دراسة اللغة العربية : الأولى إنشاء المدارس

---

(1) نقل ذلك كور ، 45-46 . أما ما يتعلق بتعليم الفرنسية للأهالى ، فاللجنة رأت ضرورته لأن للفرنسية « لغة سيادة » إذ أن الأهالى يستمعون إلى قرارات المحاكم بها وكل الاتصالات الرسمية ستكون بها عاجلا أو آجلا ، كما ستحرر بها كل الوثائق العامة كما أن الفرنسيين قادرون على دمج الجزائريين وعلى « فرنستهم » فى حدود عاداتهم ودينهم انظر أيضا كور ، ص 51 .

الثلاث(1) (1850) : والثانية إنشاء جوائز سنوية لعارفى اللغة العربية من الفرنسيين طبعا (1851) . والثالثة إعلان وزارة الحربية عن تفضيلها عارفى العربية فى الوظائف المدنية (1853) .

وبعد أربع سنوات انشئ فى الجزائر كوليج عربى — فرنسى موجها لنشر التأثير الفرنسى بين الجزائريين . وكان يضم تلاميذ فرنسيين أيضا . ومن ثمة فإن هدفه ليس كهدف الحلقات الدراسية المذكورة أو كراسى اللغة العربية : وكان مديره هو الدكتور بيرون Perron(2) الذى استدعى من مصر لهذه المهمة . وإذا كان البرنامج العام للكوليج فى حد ذاته لا يهمنا هنا ، فإنه يهمنا منه كرسى اللغة العربية الذى ألحق به سنة 1863 والذى أسند الى مستشرق مختص هو هوداس . وبعد سنة أنشأت وزارة التعليم كرسيا للهجة الجزائرية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس وأسندته إلى مستشرق مختص آخر هو البارون دى سلان (3) .

---

(1) هى ثلاث مؤسسات عربية— فرنسية بالعاصمة وقسنطينة ووهران وكان الغرض منها تخريج كوادر جزائرية تحتاجها الإدارة الفرنسية فى ميدان القضاء والترجمة والتدريس لذلك كان برنامجها يشمل المواد الفقهية والعربية بالإضافة إلى اللغة الفرنسية وكانت إدارتها تحت عناصر جزائرية إلى حوالى 1895 ثم تولى إدارتها مستشرقون فرنسيون وكان تعليمها يعتبر عاليا وليس هنا محل الحديث عن هذه المدارس. للتوسع انظر بحثنا (مدارس الثقافة العربية فى الجزائر 1830—1954) ، وفى كتابنا (أفكار جامحة) ، الجزائر 1988 :

(2) نيقولا بيرون ولد سنة 1798 ، تابع الدراسة الإنسانية ثم تخصص فى الطب ومال إلى اتباع سان سيمون وأثناء ممارسته الطب تعلم العربية فى مدرسة اللغات الشرقية ، كما درس الفارسية والتركية ولغة جاوة وكان كلوت باى قد أسس مدرسة الطب فى مصر وجاء إلى باريس يبحث لها عن الأساتذة وكان منهم بيرون الذى سافر إلى مصر وهناك واصل دراسة العربية ، وألقى دروسا فى الكيمياء وفى الفيزيا وغيرهما ، ونشر أبحاثا فى هذه العلوم وترجم رحلة ابن عمر التونسى ، كما ترجم كتاب خليل إبن إسحاق فى الفقة المالكى وفى سنة 1857 ولته حكومته إدارة الكوليج الأمبريالى (العربى—الفرنسى) فى الجزائر ، وبعد سبع سنوات سمته مفتشا عاما للمدارس العربية — الفرنسية فى الجزائر ، وقد توفى الدكتور بيرون سنة 1876 قريبا من باريس . ومن أعماله أيضا كتاب المرأة العربية قبل الإسلام وبعده ، والمجلة الطبية الجزائرية انظر ماسيه ، ص 20—22 .

(3) ولد البارون دى سلان de Slane فى بيلفاست (إيرلندا) سنة 1801 وجاء باريس سنة 1830 (سنة احتلال الجزائر) ، وانضم إلى تلاميذ المستشرق دى ساسى وقد أخذ الجنسية الفرنسية ، ونشر ديوان أمرىء القيس ومنتخبات من كتاب الأغانى ونشر قسما من ابن خلكان ، وأعمالا تتعلق بالمغرب العربى مثل النويرى وابن حوقل وابن بطوطة ، وترجمة مقدمة ابن خلدون وتاريخه وبين 1843—1845 كلفته الحكومة الفرنسية بمهمة فى الجزائر فأرسل إليها تقريره عن أهم المكتبات وعدد المخطوطات فى قسنطينية وقد طبع التقرير ثم

كان تدريس اللهجة العامية باللغة الفرنسية هو الطريقة التى اتبعها أساتذة الكراسى المذكورة أو الحلقات . وكان الهدف كما أشرنا هو جعل الأوربيين فى الجزائر يختلطون بالأهالى ويعرفون افكارهم وحاجتهم . وقد أجاب أحد هؤلاء الأساتذة وهو ماشويل الذى تولى تدريس العامية الجزائرية فى ليسيه العاصمة ثم فى حلقة وهران قبل أن يتولى شئون التعليم فى تونس بعد احتلالها ، قائلا : لو لم نكن فى الجزائر ولو لم تكن لدينا حاجة ملحة للاتصال بالأهالى عن طريق اللسان لكنا من الذين يؤيدون البدء بدراسة الفصحى التى هى واحدة ، وهى هى نفسها بالضبط فى كل البلدان التى فيها القرآن هو القانون الدينى . وقال ماشويل بأن هدفه هو جعل الأوربى يعرف الدارجة العربية كما يعرفها الانسان الأهلى الذى لم يدخل المدرسة أبدا ، مضيفا بأن الأوربى سيتفوق بعد ذلك على الأهلى فى معرفة الكتابة بالدارجة (والكتابة عموما) كما يتفوق عليه بالذكاء . واستخلص التجربة من تونس حيث الجالية الإيطالية هناك تتحدث مع التونسيين بالعامية ولا تعرف من الفصحى إلا قليلا ، مما جعل لها فى نظره تأثيرا قويا على السكان . وقد استفاد ماشويل فى طريقة تدريس العامية بآخر التطورات الحديثة فى أوربا لتدريس اللغات للشباب ، خصوصا بالنسبة لنظريات تدريس الانكليزية والألمانية وأعمال روبرتسون ، واتو ، وولندورف ، مصرحا بأنه استفاد من هؤلاء أكثر مما استفاد من طرق تدريس زملائه الفرنسيين أمثال برينييه وشيربونو[1] والواقع ان تعليم العربية للأوربيين كان عملية شخصية يقوم بها الأستاذ المستشرق فى كل مركز من المراكز المذكورة

سمى مترجما فى الجيش الفرنسى بالجزائر ، وكان هو الذى يشرف على لغة البلاغات الرسمية والمراسلات العربية للحكومة مع الجزائريين وهو الذى يعطيها الأسلوب الملائم حتى أصبحت طريقته تقليدا ان جاء بعده وفى 1863 رخص له بتولى كرسى العربية الجزائرية فى مدرسة اللغات الشرقية ، وهو الكرسى الذى تحول منذ 1871 إلى العربية العامية بعد أن كان يشغله بيرسوفال . ولدى سلان أعمال أخرى حول الحروب الصليبية وغيرها ، وقد أخرج كاتلوغ المخطوطات العربية فى المكتبة الوطنية بباريس وتوفى سنة 1878 (انظر عنه ماسيه ، ص 13 – 19 وليس له ترجمة فى (الموسوعة) الدكتور بدوى .

(1) ذكر ماشويل ذلك فى مقدمة كتابه (طريقة لدراسة العربية العامية) ، الطبعة الثانية سنة 1875 ونحن نجد صدى ذلك أيضا فى مقدمة كتاب : ايدنشانك وكوهين سولال (الكلمات المستعملة فى العربية الدارجة) ، الجزائر 1897 فقد قالا بأنهما اتبعا فى تدريس العربية نفس الطريقة المتبعة بنجاح منذ عشرين سنة بالنسبة للغات الأمريقية والإنكليزية واللاتينية والألمانية .

فكانت شخصيته وعلمه وغيرته هي التي تجلب اليه الجمهور . ولم يكن لوزارة التعليم ولا للسلطات المحلية مخطط محدد تتابعه في هذا المجال ، كما كان الحال في بداية الأمر خصوصا في عهد بريسون وبوجو مثلا . ورغم أن هذا التعليم كان مصنفا في المستوى العالي، فإن الأساتذة وجدوا أنفسهم مضطرين إلى احداث ثلاثة مستويات : ابتدائي في العامية لمن ليس لهم المام بها ، ومتوسط لمن يرغب في معرفة شيء من النحو وحتى قراءة نصوص من القرآن الكريم ، وعال وفيه تعلم تراجم المؤلفين ومختلف أنواع الكتابة . ويقول نقاد هذا التعليم إنه انخفض لأن العربية لا تعلم في المدارس الابتدائية والمتوسط حيث يتم لعداد الراغبين في المزيد إعلى يد الاساتذة المستشرقين(1) .

وخلال السبعينات ظهرت انتقادات أخرى لمشروع تدريس العربية الذي نحن بصدده ، من وجهتين : الأولى أن الحكومة لم تدعم جهود المستشرقين كالمترجمات من العربية ولا الأعمال العلمية المتصلة بالتراث العربي الإسلامي سواء في الجزائر أوخارجها، باستثناء تمويلها لمشروع اكتشافات الجزائر العلمي وترجمة دي سلان لتاريخ ابن خلدون ؛ والثانية أن النظرة السائدة سواء عند السلطة أو عند مؤلفي الكتب المدرسية الموجهة للاوربيين الراغبين في العربية نظرة تقوم على مبدإ واحد وهو أن العربية مجرد وسيلة للاتصال مع الأهالي وأداة للتوغل السياسي . أما العربية كعامل ثقافي ووسيلة للاطلاع على كنوز حضارتها اللامعة النائمة في الكتب المؤلفة بها كما يقول ماسيه فهذا ما لم يحدث قبل إنشاء المدارس العليا والكليات الجامعية ؛

ويؤرخ الذين تتبعوا الدراسات الاستشراقية في الجزائر نشأة هذه المدارس العليا بسنة 1879 ففي هذا التاريخ إنشئت ثلاث مدارس هي الآداب والعلوم والحقوق (وسبق لمدرسة الطب أن تأسست منذ 1857) . وكانت هذه المدارس الأربع هي نواة جامعة الجزائر التي اعلن عنها رسميا سنة 1909 بعد تحويل المدارس العليا المذكورة إلى كليات . ويهمنا

---

(1) أنظر النقد الذي ورد في تقرير مفتش التعليم في الجزائر في (الإحصاءات العامة) لسنة 1873—1875 كما نقله كور ، ص95—62 وقد لاحظ صاحب التقرير أنه كان الأولى لأبناء الفرنسيين في المدارس الإبتدائية بالجزائر أن يدرسوا العربية بدل الإيطالية أو الأسبانية ولاحظ أن عدد الحضور للدروس كان يتراوح بين20—30في الشتاء ، و15—20في الصيف ، معتبرا ذلك تعليما محدودا جدا ولا يحقق النتائج المرجوة ولكنه لاحظ أن وزارة التعليم رفعت أجرة أستاذ الكرسي إلى ألف فرنك .

من هذه المدارس الأربع مدرسة الآداب : فهى التى ضمت قسما صغيرا للدراسات الاستشراقية ، كما ضمت كرسيا للغة العربية وآخر للادب العربى : وقد تولى هوداس(1) كرسى اللغة العربية بمساعدة بلقاسم بن سديرة أحد الجزائريين الذين تكونوا فى مدرسة الاستشراق الفرنسى وساهم فيها بفعالية بتدريسه وتآليفه : وبالإضافة إلى ذلك تولى رينى باسيه(2) تدريس مادة الأدب العربى : ولم يلبث هوداس أن غادر الجزائر (1884) إلى باريس ليتولى هناك تدريس العامية الجزائرية فى مدرسة اللغات الشرقية خلفا لشيربونو . وقد حل باسيه محل هوداس فى كرسى العربية بالجزائر ، كما حل ادمون فانيان(3) محل باسيه فى مادة الأدب العربى .

ويعتبر هذا العهد (1880—1905) هو العهـــد الذهبى للمستشرقين الفرنسيين فى الجزائر وهو العهد الذى كلل بانعقاد المؤتمر

---

(1) ولد أوكتاف هوداس Haudas فى لوتارفيل سنة 1840 وتوفى بالجزائر سنة 1916 وقد حل بها سنه 1863 عند استلامه كرسى العربية فى الكوليج العربى — الفرنسى وبقى فى الجزائر إلى سنة 1884 حيث عمل أيضا أستاذا فى ليسيه العاصمة ، وتولى كرسى العربية بوهران ، وكرسى العربية بمدينة الجزائر ، ثم افتتح تعليم العربية فى مدرسة الآداب العليا عند إنشائها سنة 1880 نشر هوداس مؤلفات موجهة لتلاميذة وكذلك ترجم تحفة ابن عاصم فى الفقة المالكى وهو العمل الذى شغله قرابة عشر سنوات كما ترجم أعمالا تتعلق بتاريخ الغرب العربى عموما وللسودان القديم وبعض صحيح البخارى انظر عنه ماسيه ص25—27، وكذلك كور ، ص 49

(2) ولد رينى باسيه Rl Bossei سنة 1855 وقد انجذب منذ عهده الأول نحو اللغة العربية ، ودرس فى مدرسة اللغات الشرقية بين 1873—1880 وفى هذه السنة وصل إلى الجزائر حيث أصبح مديرا لمدرسة الآداب العليا ثم عميدا لكلية الآداب إلى وفاته سنة 1924 بالجزائر وقد أتقن أيضا اللغة الحبشية والبربرية ونشر عن الأخيرة أكثر من 25 عملا ومن تلاميذه فى ذلك ديستان Destaing الذى أصبح أستاذ البربرية فى مدرسة اللغات الشرقية وقد شمل اهتمام باسيه جوانب عديدة من الدارسات الاستشراقية : اللغة ، الفولكلور التاريخ ، الدين ، ونشر أعمالا عن الأدب الجاهلى والإسلامى (البردة ، بانت سعاد ، وألف ليلة وليلة إلخ .) انظر عنه الفريد بيل فى (أفريقية الفرنسية) ، 1924 ، ص13—14 و (المجلة الأفريقية) 1924 ، ص12 وما بعدها وهناك Melanges باسمه ضم حوالى 40 صفحة عن أعماله مقسمة إلى أبواب . وماسيه ، ص27—29.

(3) ادمون فانيان E. Fanian من مواليد لياج سنة 1846 وقد توفى بالجزائر 1931 اهتم بالترجمة عن العربية وواصل العمل الذى بدأه دى سلان لا سيما الجانب التاريخى ، من ذلك تاريخ الزركشى عن الموحدين والحفصيين وتاريخ ابن الأثير عن المغرب والأندلس ، وتاريخ ابن عذارى ، وكتاب الماوردى ، ورسالة للقيروانى فى الفقة كما أنه هو واضع كاتلوغ المخطوطات العربية والتركية والفارسية فى المكتبة الوطنية بالجزائر وفانيان هو الذى تولى تدريس مادة الأدب العربى بعد وفاة باسيه. انظر عنه ماسية ، ص29—30، وكذلك (المجلة الأفريقية) 1931، ص139 وما بعدها .

الرابع عشر للمستشرقين العالميين سنة 1905 بمدينة الجزائر والذى حضره حوالى خمسمائة شخص(1) . ولم يحضره من المشرق العربى ، حسب علمنا ، غير ثلاثة من مصرهم : محمد فريد وعبد العزيز جاويش وسلطان محمد . ولكن حضره عدد من تلاميذ وأعـوان المستشرقين الفرنسيين أمثال محمد بن أبى شنب وعبد الحليم بن سماية والقاضى شعيب بن على . وليس الحديث عن هذا المؤتمر وما جرى فيه من مهمة بحثنا هذا . وحسبنا أن نقول ونحن بصدد الحديث عن لغة الضاد ، أن الوفد المصرى قد انتقد غياب التعليم العربى للجزائريين وقد دخل فى نقاش حاد مع الوفد الفرنسى فى المؤتمر حول هذه النقطة .

لقد اندمجت كراسى العربية العامية القديمة التى ابتدأت منذ 1832 والموجهة إلى الأروبين فأصبح مقرها فى المدارس الأقليمية ، فتحول كرسى وهران إلى مدرسة تلمسان العربية — الفرنسية التى كانت تحت إدارة المستشرق الفريد بيل وتحول كرسى قسنطينة إلى المدرسة العربية الفرنسية أيضا والتى كانت باشراف موتيلا نسكى الى 1906 (2) ، أما كرسى العاصمة فقد تولته مدرسة (كلية) الآداب العليا وكذلك المدرسة الثعالبية (العربية —الفرنسية) التى كانت باشراف ادمون ديستان إلى ذهابه إلى باريس لتولى كرسى البربرية فى مدرسة اللغات الشرقية .

ومنذ ما يسمى بعهد اصلاح المدارس العربية — الفرنسية (1895) ثم اصلاحات الوالى العام جونار (1903—1912) فى التعليم عموما ، أصبح على الجزائريين أن يدرسوا هم اللغة الفرنسية « لغة السادة » ولم يعد الأروبيون مطالبين بدراسة العربية لا باسم تسهيل الاختلاط بالأهالى ولا باسم المعرفة الثقافية للتراث العربى لأنهم كانوا فى المحملة يحتقرون هذا التراث ولا يعترفون به ولا باسم الحاجة إلى الترجمة لأن قسم

---

(1) كان رئيسه هو ربنى باسيه وقد صدرت عن هذا المؤتمر عدة مجلدات فى شكل وقائع ومذكرات كما أن المجلة الأفريقية قد خصصت له عددا خاصا .

(2) بدأ موتيلانسكى A. Motilinski حياته مترجما فى غرداية بالجنوب ومن ثمة اهتمامه بالمذهب الاباضى والمؤلفات التى ألفت حوله ومنذ 1887 أصبح مديرا لمدرسة قسنطينة العربية — الفرنسية ، ثم أصبح هو أستاذ كرسى العربية فيها (1889) وقد قام بتدريس اللهجات البربرية ، ونشر أبحاثا حول تجربة وسكان جبل نفوسة ، ووادى ميزاب ومن ذلك بيبلوغرافية عن ميزاب ؛ وأخبار الأيمة لابن الصغير وتوفى سنة1907بعد أن قام بمهمات « علمية » فى الصحراء انظر ماسيه ، ص 32 .

الاستشراق فى كلية الآداب وخريجى المدارس الحكومية الثلاث المشار اليها أصبحوا يمدون الإدارة بما تحتاجه من ذلك . وهكذا وجد الاستشراق نفسه فى الجزائر منذ انشاء نواة الجامعة وإصلاح التعليم وأصبح مقصورا على أهل الاختصاص الذين كان عليهم أن يدرسوا العربية العامية والفصيحة والبربرية بمختلف لهجاتها . اما الأروبيون فى الجزائر فقد كان لسان حالهم ما قاله ما شويل منذ 1875 وهو « ليس علينا نحن المنتصرين أن نتعلم اللغة العربية ، بل الواجب على الأهالى أن يدرسوا لغتنا». وقد رفضوا حتى «التنازل» على هذا الحق — كما نصحهم ماشويل — حق الانتصار والسيادة !

ومن الصعب أن نعدد أعمال المستشرقين بعد أن آلت اليهم دفة الدراسات العربية فى الجزائر(1) بعد أن انتزعوها من أيدى المترجمين ومؤلفى الكتب المدرسية بالعامية وما شاكلها . ولكن أهم النواحى التى اهتموا بها هى : المعاجم . واللسانيات والخطوط والنقوش والتاريخ الدينى ، وتحقيق النصوص والترجمة فى ميادين الأدب والتاريخ والعلوم والجغرافية والفقه بالإضافة إلى أعمال انثروبولوجية وفولكلورية الخ . ومادام هذا البحث خاصا بتدريس العربية فلن نتوسع فى ذكر أعمال المستشرقين الأخرى.

وقد تبين من هذا البحث أن العلاقة بين الاستعمار والاستشراق فى الجزائر كانت وطيدة وأن الحديث فى ذلك إنما هو محض تكرار لاطائلة منه . ولكن هناك نقاط أخرى يمكن أن نستخلصها وهى :

1— ان عزم الفرنسيين على البقاء فى الجزائر وهجرتهم اليها واستيطانهم لها ترتب عليه الاهتمام بلغة السكان فحاولوا تعلمها ليفهموا أهلها ويسهل عليهم التعامل معهم قبل ان يتوطد حكمهم وتنتشر لغتهم وتأثيرهم . وقد أدى ذلك إلى اهتمام خاص بدراسة اللهجات الجزائرية العربية وغير العربية فألفوا فيها الكتب المدرسية ؛ ودونوا أمثالها وكتاباتها وتعابيرها ودرسوا الفروق بينها من منطقة إلى أخرى . وكذلك الفروق بينها وبين اللهجات العربية الأخرى التى امتدت اليها معرفتهم . ولكن ذلك لم يخل من مغامرة كالقول بأن اللهجات العربية فى شمال افريقية ابتعدت أكثر من غيرها عن العربية الأم . وقد رأينا انهم أنشأوا عدة كراسى للعامية فى الجزائر ثم أضافوا اليها كرسى العامية الجزائرية فى مدرسة اللغات

---

(1) اشتملت دراسة هنرى ماسيه (الدراسات العربية فى الجزائر) على بيبلوغرافية مبوبة بأعمال المستشرقين والمترجمين معا .

الشرقية بباريس وآخر عن البربرية فى نفس المدرسة .

2— أن الجزائر أصبحت منطلق نشاط الاستشراق الفرنسى مبكرا . فقد وقعت مخطوطاتها ووثائقها وآثارها بين أيدى المستشرقين فتصرفوا فيها تصرف المالك فى ملكه ، وضاعت معهم اليوم ثروة هائلة من ذلك بعد أن استولوا عليها بطرق مختلفة تحدث عن بعضها كبارهم من أمثال بروجر ودى سلان وفانيان . ومن الجزائر انطلقوا أيضا فيما يسمى « بالمهمات العلمية » إلى كل من تونس والمغرب والسنغال وتمكنو وغدامس الخ . فتحدثوا عن المخطوطات والمكتبات هناك ووصفوها وفهرسوا بعضها ونقلوا منها ثم نشروا من ذلك ما يفيدهم ويفيد دولتهم .

3— انه فى الوقت الذى أنشئت فيه الكراسى المذكورة ونشطت بالجزائر ونحوها كانت الإدارة الفرنسية ، بمباركة هؤلاء المستشرقين ، تستولى على مؤسسات التعليم العربى فى الجزائر وتحولها عن أغراضها وتصادر جميع أوقافها وترمى بالأطفال الجزائريين فى حضن الجهل حتى لقد قال اليكسيس دى طوكفيل سنة 1848 : لقد أطفأنا الشموع (وهو يعنى المدارس) التى جئنا لنضيئها . وآخر ما صدر عن الإدارة المذكورة فى محاربة المدارس العربية والتعليم العربى للجزائريين هو مطالبة كل من يرغب فى فتح مدرسة أو إعطاء درس أن يحصل على رخصة مسبقا حسب قانون اكتوبر 1892 ، ولكنه لن يحصل عليها على كل حال . وهذا القانون هو الذى سلطته الإدارة ضد جمعية العلماء الجزائريين ، وحركة ابن باديس عامة ، عندما عملوا على احياء التعليم العربى — الإسلامى .

4— وسواء تعلق الأمر بالمرحلة الأولى أو الثانية فى تدريس العربية للأوروبيين ، فقد كان واضحا ومعلنا بأن الهدف من ذلك هو التوغل السياسى ، وتسهيل مهمة الاتصال بالأهالى ، ومساعدة الأوروبيين على ممارسة تجارتهم وفلاحتهم ، وليس دراسة العربية الفصيحة والاطلاع على ثقافتها ولحيائها ، كما وقع مثلا فى الشام على أيدى بعض الجمعيات التبشيرية . فالنشاط اللغوى الفرنسى فى الجزائر كان سلبيا بالنسبة للغة العربية وحضارتها .

5— وقد صنف هؤلاء المستشرقون اللغة العربية ثلاثة أصناف : العربية الدارجة وهى التى أخذوا فى دراستها منذ بداية الاحتلال ، وظلوا لا يعترفون إلا بها فى الجزائر ، كنوع من «الفولكلور» المحصور فى بيئات صغيرة ، ولذلك فإن تعليم العامية الجزائرية كان يتم بالفرنسية ، وكانت كتبهم تقرأ من اليسار إلى اليمين ، وحتى

الجزائريين الذين تخصصوا فى اللغة العربية أيام الاستعمار كانوا يتخصصون فى اللغة العامية — باستثناء من دخل منهم المدارس الحكومية الثلاث التى أشرنا اليها ليتخرج قاضيا أو مترجما . الصنف الثانى العربية الكلاسيكية (هكذا يسمونها) وهى لغة الأدب القديم بما فيه القرآن الكريم والحديث الشريف وأمهات كتب التراث . وقد اعتبر المستشرقون هذا الصنف لغة ميتة مثل اللاتينية والإغريقية لا يدرسها الا أمثالهم للاطلاع على حضارة العرب والإسلام والاستفادة من ذلك لدولتهم فى معاملاتها مع الأقطار العربية والإسلامية . اما الصنف الثالث فهو ما أطلقوا عليه العربية العصرية أو الحديثة ، وهى عندئذ لغة الجرائد والكتب المطبوعة حديثا والتى كانت متداولة فى المشرق العربى . وهذه اللغة كانت فى نظرهم « أجنبية» فكانت صحفها ومجلاتها وكتبها تدخل الجزائر أحيانا ولكنها كانت تعامل معاملة المطبوعات الأجنبية : وبناء على ذلك فان الصحيفة العربية التى تصدر بالجزائر مثلا كانت تخضع لقانون الصحافة الأجنبيـــة الذى لا تخضع له الصحف الصادرة فى فرنسا نفسها .

6— ومع ذلك فان جهود هؤلاء المستشرقين فى دراسة وتعليم اللهجة الجزائرية وفى نشر وتحقيق وترجمة مجموعة من كتب التراث هى جهود جديرة بالتنويه . يضاف إلى ذلك أن عددا من الجزائريين قد تتلمذوا عليهم وأصبح بعضهم فى طليعة الباحثين والمؤلفين فى نفس الميدان . ونكتفى هنا بذكر بلقاسم بن سديرة(1) الذى ألف مجموعة من الكتب المدرسية التعليمية منذ أواخر القرن الماضى . ويختلف محمد بن أبى شنب(2) عن زميله فى عنايته بالتراث العربى وتحقيق

---

(1) من كتب ابن سديرة : موجز النحو العربى ، ودروس تطبيقية فى اللغة العربية ، ودروس فى الأدب العربى ، ومعجم عربى — فرنسى وآخر فرنسى — عربى ، والدروس التدرجية من الرسائل العربية المخطوطة وقد سماه بالعربية هكذا : (كتاب الرسائل فى جميع المسائل) ،1893 بالجزائر ولابن سديرة تأليف فى البربرية أيضا (القبائلية) وقد أصبح أستاذا بمدرسة الآداب العليا وبالمدرسة النورمالية وعضوا فى الجمعية الآسيوية بباريس .

(2) حصل ابن أبى شنب على الدكتوراة من السوربون ، واشتغل أستاذا للأدب العربى فى كلية الآداب بالجزائر ، وهو من تلاميذ رينى باسيه وقد حضر عدة مؤتمرات دولية للمستشرقين (استكهولم ، لندن إلخ) وكان عضوا فى المجمع العلمى العربى بدمشق ومن تلاميذه المستشرق البارز الفريد بيل أستاذ كرسى للعربية ، ومدير مدرسة تلمسان العربية — الفرنسية وحياة ابن أبى شنب وأعماله منشورة فى (محمد بن أبي شنب) تأليف عبد الرحمن الجيلالى ، ط 2 ،1983 وكتاب (أعلام الجزائر) لعادل نويهض ولنا بحث حوله سميناه (بين علماء الجزائر وعلماء الشام) فى كتابنا (تجارب فى الأدب والرحلة) ،1983 .

العديد من المخطوطات . والغريب أنه لم يظهر بعد الفترة التي تناولناها علماء جزائريون في مدرسة الاستشراق الفرنسي في مستوى ابن أبديره وابن أبي شنب (ما عدا ربما صوالح) رغم أن مدرسة الاستشراق في الجزائر قد شقت طريقها وأسست لها حوالي سنة 1933 معهدا خاصا سمته معهد الدراسات الشرقية ، ونشرت (حوليات) باسمه ظلت تصدر إلى 1962 تاريخ استقلال الجزائر .

وما دام البحث عن المستشرقين واللغة العربية في الجزائر فلنختمه بتعليق الشيخ عبدالحميد بن باديس على تصريح المستشرق الشهير لويس ماسينيون حول اللغة العربية . كان ماسينيون في طريقه إلى مصر لحضور دورة مجمع اللغة العربية الذي كان عضوا فيه ، وعند مغادرته فرنسا صرح بأن على فرنسا الاهتمام باللغة العربية لأنها « ليست غريبة عنا ، بل هي جزء من تراثنا القومي . » وعندما قرأ ابن باديس هذا التصريح كتب قائلا : إن ماسينيون يعرف موقف حكومته في الجزائر من اللغة العربية ومن التعليم العربي الحر ، ومع ذلك لم يرفع اصبعا ، وأنه لو أراد حقا خدمة اللغة العربية « لقدم تقريرا رسميا دعا فيه حكومته إلى اعتبار العربية لغة رسمية وإلى حرية تعليمها في الجزائر ، ثم ناقشه في دعواه أن العربية جزء من التراث القومي الفرنسي ، قائلا ولكن « اللغة هي الطابع الصحيح للقومية التي تعرب عن وحدة الشعور والتفكير ، وعما يعمها من احساسات الألم وبوارق الأمل ، مما اتحد من ماضيها وحاضرها ومستقبلها . فاللغة العربية انما هي من تراث القومية العربية فقط ، كما أن اللغة الفرنسية انما هي من تراث القومية الفرنسيق فقط» وقد ختم ابن باديس رده بقوله : لعل ما سينيون أراد بذلك التصريح المجاملة فقط ، ولكن لا مجاملة في المسائل العلمية « خصوصا في مقومات الأمم وأعز شيء لديها»(1) .

ابو القاسم سعد الله
عضو المجمع المراسل من الجزائر

(1) جريدة البصائر عدد 20 يناير 1939 وكان ابن باديس رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وقد قال ذلك حوالي سنة قبل وفاته (توفي 16 إبريل 1940) ويعني ابن باديس « بالمجاملة » أن ماسينيون يخدم سمعة فرنسا في المشرق وخصوصا بين العرب الذين تربطهم بعض الروابط بفرنسا .